الدرس الأندلسي في آثار الدكتور محمد مسعود جبران ـ رحمه الله ـ (الدرس الأدبي أنموذجا)

د. عــلاء الدين محمد الأسطى ـ قسم اللغة العربية ـ كلية العلوم الشرعية تاجوراء
جامعة طرابلس

مدْخـــــل :

ليس من باب المجاملة أو الرياء، أن يتخذ طالب علمٍ بعضًا من تراث أستاذه؛ ليجعله موضوعا للدراسة؛ بل من باب البر والإنصاف، أن يجتهد ليوفِيَ أستاذَه بعض حقه عليه، خاصة وأن آثار الأستاذ الدكتور محمد مسعود جبران قمينة بالبحث والدراسة؛ لما تتميز به من دقة المعلومات، ورصانة التحليلات، وبراعة الأساليب.

ولمّا كانت آثار الدكتور جبران رحمه الله متنوعة في كيفها، عديدة في كمها، آثرنا البحث في التراث الأندلسي الذي خلفه الدكتور رحمه الله، من خلال تحقيقاته ورسائله ودروسه بمختلف طرائقها وأنواعها. فقد اشتهر رحمه الله باهتمامه بالتراث الأندلسي، تدريسا وبحثا وإشرافا وإبداعا؛ حتى صار علما من أعلام الأدب الأندلسي وتاريخه، وقد شهد له بذلك أساتذة وعلماء، فقال عنه الأستاذ الدكتور زهير غازي زاهد من علماء العراق" [1] وقد برز في مجال البحث والتحقيق الأستاذ الأديب الدكتور محمد مسعود جبران ، إذ أثبت جدارة ودقَّة في بحوثه وتحقيقاته، وقد ألزم نفسه بتحقيق التراث الأندلسي والمغربي، ومنه هذا العمل العلمي الذي بين أيدينا " إيضاح المبهم من لامية العجم " لأبي جمعة سعيد بن مسعود الصنهاجي المراكشي الماغوسي المتوفي 1016"[2] ، وحلاّه العلامة المغربي المؤرخ الفقيه محمد عبدالهادي المنوني بقوله: "الباحث الليبي محمد مسعود محمد جبران، وهو من خيرة أساتذة المغرب العربي، وضيف المغرب المحترم"[3].

وقال الأُستاذ الدكتور عبدالحميد عبدالله الهرَّامة[4] :" فلقد استطاع هذا الباحث القدير أن يعرض في أُسلوبه الشائق ، ومنهجيته الراقية معلومات موثقة ، واستنتاجات موفقة ، جعلت شخصية مالك بن المرحَّل واضحة الأخبار والآثار مع دراسة دقيقة لأدبه ، جمعت بين الامتاع والإفادة ، وحوت من التفاصيل ما أحلَّها مكانة رفيعة لا غنى عنها لدارس الحقبة كلها في مجالات الشعر والنثر، وتاريخ الأدب .... وقلم هذا الأُستاذ المحققّ

معروف بأُسلوبه الرفيع الجامع بين القوَّة والوضوح والجمال ، وفكرة الغني المتميّز بالتنوع والأصالة والمنطقية"[5].

وشهادات الأساتذة الزملاء، واعترافات الطلاب الأوفياء ، والمهتمين بالتراث الأدبي عامة والأندلسي خاصة ، كثيرة لا يســع المقام هنا لحصرها ، وقد أجاد الدكتور رضا جبران وأفاد عندما جمعها في كتاب وسمه بـ : (محمد مسعود جبران دموع حرى، وأنفاس وفية في تأبينه)[6].

المطلب الأول ـ وقفات في ســـيرة الدكتور:

أولا ـ مولـــده ونشأتـــه : ولد الدكتور محمد مسعود جبران في حي (أبي منجل) في الشارع الغربي بمدينة طرابلس الغرب مسقط رأسه ورأس آبائه وأجداده ، بتاريخ يوم الخميس (21 جمادى الآخــرة سنة 1365هـ ، 1946/05/23م) ، ودرس فيها مراحل تعليمه المختلفة بدءاً من مرحلة الكتَّاب ومرحلة التعليم الابتدائية والإعدادية ، ومعهد المعلمين وانتهاء إلى الشهادة الجامعية والماجستير ، فقد تخرّج بشعبة اللغة العربية والدين في معهد المعلمين ، القسم الخاص سنة 1388هـ / 1968م ، وحصل في أثناء تلك الفترة أيضا على دبلوم مدرسة الصحافة التابعة لمدارس المراسلات المصرية سنة (1382 هـ /1962م) ، بتوجيه الدكتور محمد فائق الجوهري – رحمه الله . واستفاد من مجالس أساتذته وشيوخه العلماء : أحمد الفقيه حسن (الحفيد) وعلي الفقيه حسن ، وأحمد قنابة ، وعمر العربي الجنزوري ، ومحمد مسعود فشيكة ، ومن مجالس ودروس : الشيخ محمود عمر المسلاتي ، والشـيخ عبد الرحمن القلهود، والشيخ عبد الحميد بن عاشور، وفتح الله حواص، ومحمد الهادي كريدان ، وعلي مفتاح الشويطر وغيرهم من علماء طرابلس– رحمهم الله تعالى- .

ثانيا ـ تعليمـــــه: حاز بعد عمله في التعليم العام ليسانس اللغة العربية والدّراسات الإسلامية من كلية التربية بجامعة طرابلس سنة (1395 هـ / 1975 م) ، وعين معيدًا في الكلية المذكورة ، وقد كان من أبــرز أساتذته في الكلية : الدكتور بدوي طبانه ، والدكتور أمين توفيق الطيبي ، والدكتور أحمد مختار عمر ، والدكتور عبد الرحمن عطبة ، والدكتور حسن حبشي ، والدكتور عمر التومي الشيباني ، والدكتور عبد الحكيم بلبع، والدكتور علي أبو المكارم ، والشيخ محمد نشنوش ، والدكتور حسين عبداللطيف ، والأستاذ عبدالله الهوني ، والدكتور عمرو النامي ، والدكتور محمد الدسوقي ، والدكتور حسيب السامرائي، والدكتور علي الحديدي ، وغيرهم كثير من العلماء الأفاضل .

نال درجة الماجستير (الشهادة العالية) في الأدب العربي الحديث من جامعة طرابلس سنة 1403 هـ / 1982 م ، بإشراف الدكتور عماد الدين حاتم ، وناقشها الدكتور مصطفي حسين، والدكتور عبدالمولي البغدادي ، والدكتور الصيد أبو ديب .

أوفد سنة (1412 هـ / 1991م) ، إلى جامعة محمد الخامس في الرباط بالمغرب الأقصى لنيل درجة دكتوراه الدولة ، التخصص الدقيق في الأدب الأندلسي، فنال الدرجة سنة (1418 هـ / 1997م) ، بميزة حسن جدا حسب المصطلح العلمي المتعارف عليه بالمغرب ، أي ممتاز ، وقد أشرف على الرسالة عميد الأدب المغربي الأستاذ الدكتور عباس عبدالله الجراري ، وشارك في تقييمها ومناقشتها : الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة ، والأستاذ الدكتور علال الغازي – رحمه الله ، والأستاذ الدكتور علي لغزيوي – رحمه الله ، والأستاذ الدكتور محمد مفتاح والأستاذة الدكتورة ثريا لهي كما انتفع بالبيئة العلمية والثقافية النشيطة في المغرب وتفاعل معها بالمشاركة في ندواتها ومؤتمراتها ، والتعرف على أعلامها وخزائنها وأَنجز فيها بعض آثاره العلميَّة[7] .

المطلب الثانـــي ـ آثاره الأندلســـــية:

للدكتور محمد جبران - رحمه الله - آثار عديدة في التراث الأدبـــي منها المطبوع ومنها المخطوط، لا سيما في الأدب الليبي وأدب الغرب الإسلامي. ومن الآثار العلمية التي سجل فيها دروسه الأندلسية:

أولا ـ كتبه ومحققاته المطبوعة :

1- مالك بن المرحَّل أديب العدوتين بتقديم الأستاذ الدكتور عبدالحميد عبدالله الهرَّامة.

2- ديـــوان الجوالات ، لمالك بن المرحل، دار أويا ، بيروت 2002م.

3- فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ، المضامين والخصائص الأسلوبية ، دار المدار الإسلامي ، 2004م.

4- اللمحة البدرية في الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ، تحقيق ، 2008.

ثانيا ـ الملتقيات والمؤتمـــرات:

1- الملتقى الثالث للدّراسات المغربية والأندلسية ، المغرب 1993م.

2- الدورة الربيعية لمركز الدراسات الأندلسية بشفشاون ، المغرب 1994م.

3- الملتقى السادس للدّراسات المغربية والأندلسية ،2000م.

4- الندوة العلمية الدولية عن لسان الدين ابن الخطيب، جامعة حلب سوريا 2003م.

5- ابن الخطيب وحوار الحضارات ، فاس المغرب 2007م.

6- ندوة ابن الخطيب وحوار الثقافات ، فاس 2013م.
7- الندوة الدولية حول لسان الدين بن الخطيب مجدد فكر التسامح وحوار الثقافات ، فاس المغرب 2013م.

ثالثا ـ مقالاته في الصحف والمجلات:

1- الأندلس (1) / الخميس 1 شعبان 1385 / 25 نوفمبر 1965.
2- الأندلس (2) / الثلاثاء 7 شعبان 1385/ 30 نوفمبر 1965.
3- صقلية (1) / الجمعة 17 شعبان 1385 / 10 ديسمبر 1965.
4- صقلية (2) / الاثنين 27 شعبان 1385 / 20 ديسمبر 1965.
5- المغرب في عهد المرابطين / الجمعة 28 شعبان 1385 /18 فبراير 1966.
6- المغرب في عهد دولة الموحدين وبنى مرين / الجمعة 4 مارس 1966 /12 من ذي القعدة 1385.

رابعا ـ بحوثه المنشورة في الصحف والمجلات:

1- حولية مجمع اللغة العربية (ليبيا) النثر الفني الخطيبي ع 6 س 2008م.
2- مجلة الفصول الأَربعة (ليبيا) نص أندلسي جديد "ديوان الجوالات" من شعر مالك بن المرحل ع 90 – س 22 – 2000.
3- مجلة كلية الآداب (المغرب) نظرات في شاعريَّة مالك بن المرحَّل. ع 3 – س 3 – 1410 – 1989
4- مجلة كلية الآداب – جامعة عبد الملك السعدي الرسائل المزاوجة في النثر الأدبي المغربي والأندلسي. ع 4 س 1991
5- عبدالواحد بن الطـــوَّاح ناقداً ع 5س 1993
6- مجلة كلية الدعوة الإسلامية نصٌّ أَندلسيٌّ جديد المختصر استنزال اللطف الموجود في أسر الوجود لمحمد لسان الدين من الخطيب ع 21 س 2004
7- مجلة "اللسان المبين" (ليبيا) نصٌّ أندلسي مُحقَّق "رتيمة المودع وتعله القلب المتصدع ع 3 س 2006

خامسا ـ كتب قيد الإعداد

1- محمد لسان الدّين بن الخطيب وقضايا عصره.

سادسا ـ الرســائل التــي أشــرف عليها :

1- ابن حـــزم وتحقيق ديوانه (ماجستير) إعداد : أبو بكر أبو الخير 2007م .
2- بناء الصورة الفنيَّة في شعر إبراهيم بن الحاج النميري (ماجستير) إعداد: لمياء رمضان كرواط ، 2010.

3- المرأة في الشــعر الأندلسي خلال عصر الطوائف والمرابطين (ماجستير) إعداد : نجاة أحمد الشاوش 2011.

سابعا ـ الرسائل التي ناقشها :

1- الاختيارات الشعرية الأندلسية في القرن الثامن الهجري (ماجستير) إعداد : الشعلاء خلاصة 2004.

2- أثر البيئة الأندلسية في النثر الفني (عصر أمراء الطوائف) (ماجستير) إعداد : الناجم المزوغي 2005.

3- الصورة الفنية في شعر ابن الأبار الأندلسي (ماجستير) إعداد : خالد محمد البلعزي 2005.

4- شعر ابن الأبار وابن الخطيب (ماجستير) إعداد : إيناس رمضان الشتيوي 2009.

5- الرسائل الديوانية عند كتاب الاندلس في عصر ملوك الطوائف – (الماجستير) إعداد : سعاد معاوي الشيباني 2013.

6- فنُّ المعارضات الأدبيّة في النثر الأندلسي في القرن الخامس الهجري (ماجستير) إعداد : محظية محمد الخويلدي 2014.

وبالنظر إلى غزارة الآثار الأندلسية للدكتور جبران - رحمه الله- ، ومن خلال ما أمكن الاطلاع عليه من هذه الآثار الأندلسية ، يمكن تقسيم الدرس الأندلسي الذي حظيت به المكتبة العربية وطلاب العلم إلى الأقسام الآتية:

أولا ـ الدرس التعليمي ، والأكاديمي : يتمثل الدرس الأندلسي التعليمي عند الدكتور جبران - رحمه الله- ، في اشتغاله بتدريس مادة الأدب الأندلسي ، والدرس الأكاديمــي : فيراد به الجانب البحثــي من خلال إشــرافه علــى عديد من الرسائل العلمية التي بحثت في الأدب الأندلسي ، ورسائل أخرى ناقشها.

ثانيا ـ الدرس التاريخـــي : يتمثل الدرس التاريخي في الآثار التي تعنى بتاريخ الأندلس، وهي كثيرة منها: سلسلة مقالات في جريدة طرابلس الغرب تحت العناوين الآتية: (الأندلس (1)، الأندلس (2) نوفمبر 1965م، صقلية (1)، صقلية (2) ديسمبر 1965م، المغرب في عهد المرابطين فبراير 1966م، المغرب في عهد الموحدين مارس 1966م. [8]

ثالثا ـ الدرس الثقافـــي : يتمثل في بعض الآثار التي تعنى بالشأن الثقافي ، وهي لم تخل من الفائدة العلمية – أيضا- ، ومن أمثلتها : ابن الخطيب وحوار الحضارات ، فاس

المغرب 2007م. ندوة ابن الخطيب وحوار الثقافات ، فاس 2013م، الندوة الدولية حول لسان الدين بن الخطيب مجدد فكر التسامح وحوار الثقافات ، فاس المغرب 2013م.

رابعا ـ الدرس الأدبـــي : ويراد به الدروس المتعلقة بالإبداع الأدبي، سواء أكان ذلك الإبداع نظما خالصا للدكتور جبران رحمه الله من شعر أو نثر، أم كان نقدا موجها فإبداع غيره.

المطلب الثالث ـ الدرس الشعري:

ترك الدكتور جبران رحمه الله ديوان شعر مخطوط، وإن كان الديوان خاصا بالحالات الشعورية والإنسانية للدكتور جبران رحمه الله عبر عنها في إهداء ديوانه بقوله: " أهدي هذه الخوالج، والخطرات الشعرية "[9] ، وقد حضرت الأندلس في ديوان الدكتور جبران - رحمه الله - ، من خلال صور متعددة، أدت كل منها درسًا من دروسه الأندلسية الماتعة، ومن تلك الصور:

أولاً ـ صُـــورة العنـــوان ودرســـه : حضـرت الأندلس في العنوان من وجهين متعارضين، فأما الوجه الأول فيعكس الحضور القوي الواضح، الذي يؤدي درسا تذكيريا لمن غفل عن صورة الأندلس فيه ، وأما الوجه الثاني فيعكس الحضور الخفي المستتر، الذي يؤدي درسا تعليميا لمن جهل ما يصوره الديوان من حضور أندلسي، فكيف ذلك؟

وسم الدكتور جبران رحمه الله ديوانه باسم: (جهد المقل)، وهي تسمية لا تبدو للقارئ العادي - غير المتخصص الدقيق في التراث الأندلسية – ذات معنى أو رسالة يريد صاحبه أن يؤديها من خلاله، أما القارئ المتبحر في التراث الأندلسي سيدرك أن الشاعر جبران رحمه الله يريد أن يذكره بديوان شعري أندلسي كان يحمل هذا الاسم، لعله يستنهض بذلك همم الباحثين ليجدوا في البحث عنه؛ فهو ديوان ضاع مع ما ضاع من تراث الأندلس وحضارتها. وكأن الدكتور جبران رحمه الله أراد أن يقول: ابحثوا عن الديوان الأندلسي الضائع لعلكم تجدونه، أو تجدون بقايا منه.

ومما يؤيد أن الدكتور جبران - رحمه الله - قصد إلى التنبيه إلى الديوان الأندلسي الغائب ، ما جاء في مقدمة ديوانه الماثل الذي ما يزال مخطوطا، حيث قال : " أسميته بتسمية قديمة لديوان شعر عربي مغربي مفقود هو ديوان جهد المقل ، للشاعر العالم الجليل أبي القاسم محمد الشريف السبتي من أعلام اللغة والأدب والنقد والشعر في المغرب الأقصى، والغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري" [10]. ، ومن المعروف

أن الشريف السبتي قد أهدى ديوانه الغميس إلى تلميذه محمد لسان بن الخطيب "[11]. وبهذا التقديم والتنبيه يرى القارئ العادي أيضا أنه تعلم درسا جديدا، مفاده: أن هناك ديوان شعري أندلسي، وشاعر جهبذ، سبق الدكتور إلى هذا العنوان.

ودرس آخر يتعلمه الباحث ، متمثل في الأمانة العلمية الدقيقة حتى في مجال الشعر والإبداع ، وليس في مجال البحث الأكاديمي فقط. وبهذا يجتمع وجهان رئيسان في صورة واحدة ، وجه يعكس حال العارفين الذين قصد الدكتور جبران - رحمه الله - تذكيرهم بواجبهم تجاه ذاك الديوان الضائع ، ووجه يعكس حال الخالي الذهن من وجود الديوان الغائب. لتجتمع الصورة كاملة بوجهيها مع الدرس الأندلسي بوجوهه المتعددة.

ثانيا ـ صـــور الأندلس ودرسها:

ليس من المبالغة القول : إن الشاعـــر أيا كان ، ليس بمنأى عن سلفه من الشعراء والأعلام في شتى علوم العربية ، فهم حاضرون وإن غابوا في نصوص الشعراء المعاصرين تصريحا أو تلميحا. فكيف، والشاعر هنا هو الدكتور جبران - رحمه الله- ، صاحب الآثار الغزيرة في التراث الأندلسي ، أن يغفل الأندلس، أو يتجاهلها في شعره ولا يؤدي ما يراه حقها عليه؛ لذلك تعددت صور الأندلس في شعر ه، لتتعدد الدروس المستفادة منه ومنها، ومن أهم تلك الصور:

1ـ الصورة الجلية الظاهرة: حضرت الأندلس حضورا جليا واضحا في بعض مواضع ديوان جهد المقل للدكتور الشاعر جبران - رحمه الله - ، فجاءت الأندلس وجاء أعلامها صراحة، ومن ذلك قوله في أم كلثوم:

يَا ثُومَةَ[12] النّيلِ، يَا زِرْيَابَ أَنْدَلُسٍ يَا طَائِرَ الأَيْكِ مَاسِ الدَّهْرَ إِنْشَادِي[13]

فالشاعر جبران - رحمه الله - يذكر الأندلس صراحة، عندما يشبه أم كلثوم ذات الصيت الكبير في المجتمعات العربية المعاصرة، بزرياب صاحب الصيت الأشهر قديما في الأندلس، وحديثا في التراث الأندلسي ومحبيه ، صورة جلية ظاهرة لا لبس فيها، ولا حاجة لشرح معالمها، وبيان الغاية منها، وإن كان لابد فهي صورة في معرض الأنس المشبوب بالحنين لتلك الحضارة الغابرة، في دلالة على عمق تعلق الشاعر بها، فهو لم ينسها حتى وهو في لحظات أنسه.

ومن الصـــور الظاهرة اقتباسه من بعض النصوص الشعرية الأندلسي ، ومن ذلك أنه لما غادر بلاد المغرب (المملكة المغربية تحديدًا)، أخـــذه الحنين إليها ، وكتب في ذلك قصيدة رقيقة مفعمة بالشوق والحنين ، فكان مما قاله فيها:

وَمَا هَاجَنِي غَيْرُ ضَيْمِ الأَسِير (سَلامٌ عَلى سَبْتَةِ الْمَغْرِبِ)[14]

وعجز البيت : (**سَلامٌ عَلَى سَبْتَةِ الْمَغْرِبِ**) مقتبس من قصيدة لمالك بن المرحل مطلعها:

سَلامٌ عَلى سَبْتَة الْمَغْرِبِ أُخَيَّة مَكَّةَ أَوْ يَثْرِبِ[15]

وبهذا الاقتباس المباشر تكون الأندلس حاضرة صراحة من خلال اقتباس شعر أديب العدوتين مالك بن المرحل.

الصورة الخفيـــــــة : حضرت الأندلس حضورا غير مباشر في بعض المواضع من ديوان جهد مقل، منها حضورها في قصيدة بعنوان خلي البال وفيها يقول الدكتور جبران - رحمه الله- :

بَدَا لِي النّورُ فِي الْعيدِ رَقِيقَ الْخَصْرِ وَالْجِيدِ
وَمَنَّ الْيَوْمَ تَرْدِيدِي لِنَثْرِ الدُّرِّ مِنْ فِيهِ
غَزالٌ ثَغْرُهُ أَلْمَى بَهِيٌّ جَاوَزَ الْحُلْمَا
تَثَنَّى لِلْهَوَى لَمَّا رَآنِي هَائِمًا فِيهِ[16]

فهذا المطلع من القصيدة التي سارت على نفس الشكل والمضمون، تعكس صورة الأندلس.

وفي نص آخر بعنوان الخريدة، يستهله الدكتور جبران رحمه الله:

صَمَتْ قَلْبي وَمَا أَدْري الْعُيُونُ وَحَلّتْ سَاحَتِي مِنْه الْمَنُونُ
فَقُلْتُ وَقَدْ عَلَتْ فِيَّ الظُّنُونُ أَكُلُّ العَاشِقِينَ لهُمْ فُتُونُ؟
فَزادَتْ حَيْرَتِي أَنّي الْغَرِيقُ
عَلَى أصْداقِهَا هَاجَ الأَنِينُ وَفِي رَشَقَاتِهَا حَلَّ الْيَقِينُ
تُجِيبُ مُتَيَّمًا وَلَهُ حَنِينُ (عَلَى قَدْرِ الْهَوَى يَأتِي الْجُنُونُ)
رُوَيْدَكَ أيُّهَا الْحِبُّ الرّقِيقُ
وَناجَيْتُ الْخَرِيدَةَ: هَذَا أَمْرِي عُيونُكِ بِالصَّفاءِ عَمِيقُ بَحْرِ
فَجُودِي بِالوِصالِ وَأنْتِ خَمْرِي أَروقُ سُلافَةً وَلَطِيفَ سِحْرِ
وَأحْيَا وَامِقًا وَأنَا الْعَشِيقُ[17]

ففي هذين النصين تكاد تجتمع أركان الموشح، لولا غياب بعض الأطر الأساسية كالأسماط الثلاثية ، غير أن اللغة الحضَريّة الرقيقة التي يختص بها الشعر الأندلسي وتكثرُ فيه موجودة بوضوح، كما في قوله في النص الأول: (رقيق الخصر والجيد، ثغره ألمى)، وقوله في النص الثاني: (لهم فتون، وناجيت الخريدة).

وبهذا يحضر الدرس الأندلسي الشعري في ديوان جهد المقل، من خلال تقنيات متعددة، كان أكثرها وضوحا عنوان الديوان الذي صرّح الدكتور جبران رحمه الله أنه سَمِيُّ الديوان الضائع (جهد المقل) للشاعر العالم الجليل أبي القاسم محمد الشريف السبتي، وهو درس جليل استطاع من خلاله الدكتور جبران رحمه الله إحياء ذاك الديوان الضائع، وإن لم يُعْثَرْ عليه حتى لحظة كتابة هذا البحث، فيكفيه سبْقُ الإشارة إليه والتنويه به، والتنبيه عليه.

ثم درس حضور الأندلس صراحة من خلال اقتباسات متعددة منها حضور بعض أعلام الأندلس، وبعض نصوصها الشعرية، وانتهى إلى الإشارة إلى الأندلس من بعيد من خلال استعمال اللغة الحضَرية الرقيقة التي يختص بها الشعر الأندلسي وتكثُرُ فيه.

المطلب الرابع ـ الدّرس النقدي:

للنقد في آثار الدكتور جبران رحمه الله حضور رصين ؛ وذلك لما يمتلكه الدكتور من أدوات النقد وتقنياته، فتراه لا يوجه نقدا إلا بعد دراسة مستفيضة يقف من خلالها على التفاصيل الدقيقة ، ونقد الشعر ونقد النثر عنده سيان، ولا أدل على ذلك أنه يخصص الباب الثاني في كتابه عن مالك بن المرحل للحديث عن أدبه فيجعل بابا تحت عنوان : دراسة آثاره الأدبية .الفصل الأول: نظرات في أشعاره ومنظوماته ، والمبحث الأول: الأغراض ،والمبحث الثاني: الأشكال والفصل الثاني: نظرات في نثره وترسله ، والمبحث الأول: فن الرسائل ،والمبحث الثاني: فن المقامة ،والمبحث الثالث: فن النقد والمناظرة[18])

وقد كان من عادة الدكتور جبران - رحمه الله - أنه لا يفوت فرصة أن يسدي لك نصيحة، أو يهديك علما، فكيف به وهو يدون دروسه العلمية، فتراه يخالف عادات النقاد، ويوجه النقد على نوعين رئيسين هما:

أولا: نقد الشـــعر: يتجه الدكتور رحمه الله في نقد الشعر تجاهين رئيسين، هما:

1ـ النقد الذاتـــي : ويراد به النقد الذي وجهه الدكتور رحمه الله لشعره المتمثل في ديوانه جهد المقل، وليس النقد العفوي الانطباعي الذي اشتهر في عصر ما قبل الإسلام، ومن نقده الذاتي - رحمه الله - لشعره قوله المتواضع في مقدمة ديوانه يصف شعره: " والذي

أريد تقريره في هذه المقدمة لديواني (جهد المقل)، الذي يظهر بضاعتي المزجاة وإقلالي في هذه الصناعة العصية أن تجاربي في مضامينه وأشكاله محدودة غير ممدودة، ..." [19]، غير أن سمة الناقد المنصف متأصلة في الدكتور جبران رحمه الله، فعلى الرغم من تواضعه إلا أن سليقته النقدية أملت عليه أن يسجل ما يجده في ديوانه من حسنات فيقول: "والنصوص الشعرية في هذا المجموع الذي يجسده (جهد المقل) في صناعة الشعر يمثل مع اهتزازات الوجدان وانفعالاته في الأغراض التي طرقها تطورَ قدراتي اللغوية والفنية عبر القصائد والمقطعات التي قيلت زمن الغرزمة والمحاولات الأخرى في زمن الشباب، ثم في زمن الاكتهال والاكتمال، وهي على ذلك مظاهر لغوية، تجمع في تجاربها الشعورية، ومكنوناتها الفنية بين مظاهر من القوة في بعض النصوص، وبين مظاهر الضعف في نصوص أخرى" [20].

وبهذا يعطي الدكتور - رحمه الله- درسه في نقد الشعر، بأن يلتزم الناقد: " تمييز الجيد من الرديء في النصوص الأدبية "، حتى وإن كان ذلك النقد موجها لنتاجه هو، فلا مجاملة ولا إطراء، وفي المقابل لا إجحاف ولا إزراء، بل على الناقد أن يكون بين بين، منصفا عادلا يميز الجيد ويقف على غير الجيد، وهذا هو أساس النقد وقاعدته.

2- النقد الغيري: ويراد به النقد الذي يوجهه الدكتور جبران - رحمه الله- ، تجاه إبداع أدبي لشاعر أو كاتب، أو تجاه بعض القضايا النقدية المتعلقة بالشعر.

فمن نقد الشعر الأندلسي في آثار الدكتور جبران - رحمه الله - ما كان منه في كتابه مالك بن المرحل أديب العدوتين ، وذلك بتخصيصه الفصل الأول من الكتاب تحت عنوان (نظرات في أشعاره ومنظوماته) تناول المبحث الأول الأغراض، والمبحث الثاني تناول الأشكال. ففي المبحث الأول قسم أغراضه الشعرية إلى قسمين ظاهرين هما: الشعر الوصفي، والشعر النفسي المعرفي. ثم قسم الشعر الوصفي إلى أقسام هي: شعر النسيب والتشبيب، شعر الوصف، الفخر والمدح، الهجاء. وقسم الشعر النفسي المعرفي أيضا إلى أقسام هي: شعر الجهاد، الزهد والأمداح النبوية، الشعر المعرفي والتعليمي. ومن أحكامه النقدية في هذا الفصل، أنه وقف متأملا لبعض نصوصه التي حكم عليها أنها من بواكير شعره، وذلك عندما ذكر أبيات ابن المرحل التي يقول فيها:

الصَّبُّ إلى الْجَمالِ مَائِلْ ... وَالْحُبُّ لِصِدْقِهِ دَلائِلْ
والدَّمْعُ لِسانِلِي جَوابٌ ... إنْ رُوجِعَ سَائِلٌ يُسائِلْ
والْحُسْنُ عَلى الْقُلوبِ وَالٍ ... والقَلْبُ إلَى الْحبيبِ وَائِلْ
لَوْ سَاعد مَنْ أَحَبّ سَعْد ... مَا حَالَ مِنَ الْحَبيبِ حَائِلْ
يَا عَاذِلِي إلَيْكَ عَنِّي ... لاَ تَقْرَب سَاحَتِي الْعَواذِلْ[21]

يقول الدكتور جبران رحمه الله تعليقا على هذه الأبيات: " فالذي يؤكد أن هذا النص من شعر البواكير عنده، هذا الرصف الظاهر، الذي لا تجيء فيه الألفاظ بإسماح"[22] أما في المبحث الثاني، فقد قسم الأشكال الشعرية إلى ثلاثة محاور رئيسة هي: البنية الموسيقية والبنية اللغوية، والبنية البلاغية.

ومن أحكامه النقدية في هذا الفصل أنه وصف ابن المرحل بالتجديد في بعض أشكال شعره، فقال: " ومجمل القول في المعشرات، أنه قالب من التجديد في القالب الشعري، مبني على عشرة أبيات وبذلك سميت، يوظفها الشاعر في الحديث عن غرض من الأغراض بحيث تكون متحدة في وزنها وقافيتها المشتركة من حرف أول الصدور وهو كما لا يخفى ضرب من ضروب الإعنات أو لزوم ما لا يلزم"[23]، ومن الأمثلة التي اختارها للمعشرات قول مالك ابن المرحل:

أَمَالِي إِلَى قَبْرِ النَّبِيّ مُبَلِّغٌ ... سَلامًا؟ فَقَدْ أَفْنَى الزّمَانُ ذِمَائِي
أَمَانَةَ مُشْتَاقٍ حَمَى الدَّمْعُ جَفْنَهُ ... فَمَا طَافَ طَيْفُ النَّوْمِ خَوْفَ حِمَائِي
أَمَانِيُّ كانَتْ لي زِيارَةُ قَبْرِهِ ... وَأَرْضَى بِأَرْضٍ يَانِعٍ وسَمَائِي
أَمَالُ قَنَاتِي بَعْدَ حُسْنِ اعْتِدَالِهَا ... زَمانُ أَرَانِي النَّقْصَ بَعْدَ نَمَائِي
أَمَاتَ قُوَى الأَعْضَاءِ إلاَّ أَقَلَّهَا ... وَأَعْطَشَ رُوحِي حِينَ أَنْضَبَ مَائِي[24]

ثانيا ـ نقد النـــثر : من مؤلفات الدكتور جبران رحمه الله المطبوعة، كتابه: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية، وهو في الأصل أطروحته للدكتوراه، التي ذكرها الدكتور محمد بن شريفة –رئيس الخزانة العامة بالرباط، وعضو أكاديمية المملكة المغربية – فقال : " تعد هذه الأطروحة من الأطروحات الأمهات، فهي من الغنى بحيث ستتولد عنها كتب أخرى، فهي في الحقيقة عصارة أطاريح لغناها بالشواهد والنصوص؛ إذ لم تقتصر على أثر دون أثر من إنتاج ابن الخطيب"[25].

وذكرها - أيضا – الدكتور : علي الغزيـــوي – أستاذ النقد الأندلسي بكلية الآداب جامعة محمد الخامس – بقوله : " إن هذه الأطروحة من حيث موضوعها دراسة أصيلة تنصب على الجانب النثري للأديب الأندلسي الموسوعي ابن الخطيب، وهي تتناول هذا الجانب بطريقة مكثفة بناء على وضوح في التصور عند الباحث، وتكامل في البناء "[26].

ولم يختلف منهج الدكتور جبران رحمه الله في نقده للنثر عن منهجه في نقده للشعر، حيث إنه لم يعرض في نقده للنثر الفني فحسب، بل وَسِعَ نقْدُه بعضَ القضايا النقدية، ومن

تلك القضايا: (قضية المعاصرة)، الذي عرضها في كتابه فنون النثر الأدبي عرض المستاء من تعسف بعض النقاد على التراث القديم وقياسه بمقاييس العصر الحديث.

ومن ثم يمكن تناول الدرس النقدي عند جبران من وجهين رئيسين :

1- نقد النّص : كان الدكتور جبران رحمه الله في نقده موضوعيا أمينا، فلم تأخذه العاطفة ليصور للقارئ أن ابن الخطيب ناقد عظيم، وفي المقابل لم يتجاهل دور ابن الخطيب في مجال النقد فيقول جبران:" لا نريد أن نغالي في التحليل والحكم، فنزعم أن لابن الخطيب نظرية نقدية مستقلة ومتميزة، لها أبعادها التنظيرية المحددة، ومعالمها التوجيهية المتفردة عن سائر المذاهب النقدية التي سبقته أو عاصرها، كما لا نريد أن نتواضع بأثره الظاهر في هذا الفن فنقلل من جهوده النقدية التي وصلت إلينا على صورة الإجراء والتطبيق، ولم تصل إلينا على مستوى التنظير والتأطير إلا في إطار ضيق محدود، فنتجاهل بذلك فنا بارزا من فنون نثره الأدبي ساهم في توجيه الحياة الأدبية في القرن الثامن في الغرب الإسلامي مساهمة بارزة"[27].

وفي سياق حديث الدكتور جبران رحمه الله عن آثار لسان الدين ابن الخطيب النثرية يقول: " بل قد جارت عليها –في غياب تلك البحوث المؤصلة – بعضُ الأحكام المتعسفة التي رأت أن تُحكّم ذوق العصر الحديث على ذوق أدباء القرن الثامن الهجري، فزهَّدتْ في أنساق ترسل لسان الدين وفي بعض أنواعه، ووصفت رفيفه الذي لم ترتق إلى تذوقه وفهمه بالإظلام والرتابة والإطناب، وربما تجرأت هذه البحوث المتسرعة في تستر، فوصفت هذه الفنون بعدم الإفادة. وهذا لعمري من الجرأة المذمومة"[28].

فهو مثلا يصحح بعض المصطلحات النقدية التي اختارها بعض النقاد، ومن ذلك مصطلح (القصيدة الرسالة) الذي أطلقه .....[29]، وسماه الدكتور مصطفى السيوفي مصطلح (الرسائل الشعرية)[30]، بينما يرى الدكتور جبران رحمه الله أن يسميه تسمية يراها " أكثر دقة في وصفه وهو مصطلح (الرسالة المنظومة)؛ لأن الكثير من نماذج هذا اللون هو أقرب في نظرنا إلى النظم منه إلى فن الشعر والقصيد "[31].

والواقع أن رسائل ابن الخطيب التي جاءت موزونة تفتقر لبقية عناصر الشعر، من حيث الصورة والعاطفة، فهي لم تتعد كونها رسائل موزونة فحسب، لتكون نظما لا يناسبها مصطلح القصيدة الذي أطلقه ....، ولا وصف الشعرية الذي أطلقه السيوفي وإنما يصدق عليها ما اختاره لها الدكتور جبران رحمه الله من خلال مصطلح (الرسالة المنظومة).

2- نقد النقـــد: لم يُسَلِّمْ الدكتور جبران رحمه الله، بالآراء النقدية التي وجدها مبثوثة في كتب النقد والأدب، وإن كان أصحابها من أعلام النقد في العصر الحديث، بل إنه أبدى نقده الموضوعي الذي وصل إليه من خلال القراءة والبحث والتأمل، فيقول في عموم آراء النقاد التي تفتقر للتأمل والإنصاف، " وقد قارنت هذا المذهب النقدي المندفع الخاطئ، الذي لم ينطلق من التأمل الدقيق في طوايا النصوص الخطيبية مع الأحكام الدقيقة التي خُلِصَتْ بها الومضات القليلة ضمن أحكام البلغاء..."[32].

والأمثلة التي ساقها الدكتور جبران - رحمه الله – كثيرة ، ولعل أهمها ما استوقف فيه أعلام النقد المعاصرين، من أمثال الدكتور إحسان عباس، والدكتور رضوان الداية، والدكتور شوقي ضيف، وهم أئمة النقد والأدب في العصر الحديث.

وذلك عندما عرض جبران لتجاهل هؤلاء الأعلام مكانة لسان الدين ابن الخطيب النقدية فيقول : " بيد أنه من الغريب حقا، أن يتجاهل باحث دارس كالدكتور محمد رضوان الداية في كتابه القيم (تاريخ النقد الأدبي في الأندلس) لسانَ الدين ابن الخطيب، فلا يخصه -على الرغم من تأثيره الملحوظ في النقد بتعريف بجهوده النقدية والتقويمية التي جاءت موزعة في بطون كتبه -... والأغرب من ذلك فيما ذهب إليه أن يرى أنّ النقد والكتابة فيه انتهت بحازم القرطاجني صاحب كتاب منهاج البلغاء، وسراج الأدباء"[33].

ثم يسجل الدكتور جبران رحمه الله الملاحظة نفسها على كل من الدكتور شوقي ضيف الذي يصفه بأنه تبع رضوان الداية فيما ذهب إليه، وعلى الدكتور إحسان عباس الذي انتهى إلى ما يشبه ما انتهى إليه الدكتور الداية"[34].

ومأخذ الدكتور جبران - رحمه الله - الذي أخــذه على هؤلاء النقاد الأعلام ، أنهم اعتمدوا في حكمهم على الجانب التنظيري التأصيلي ، لا على جانب الإجــراء والتطبيق ، فالدكتور جبران يرى أن الآراء النقدية المبثوثة في كتب لسان الدين ابن الخطيب تعكس الصورة الحقيقية للنقد في العصر الغرناطي ، وأن إشارات ابن الخطيب وشذراته " ظاهرة متميزة جديرة من باحث أصيل كالدكتور إحسان عباس أن يستقصي أعمالها، ويجلو أبعادها النقدية، فليس ثم شك في أن ابن الخطيب كان أكثر إسهاما في مجال النقد من ابن خلدون الذي انتهى إليه في دراسة النقد في كتابه المذكور"[35].

ولا شك أن هذا النقد الذي وجهه الدكتور جبران رحمه الله لهؤلاء الأعلام ليس من باب النيل منهم، أو التقليل من جهودهم، وإنما هي نفثة نقدية كان يرجو أن هؤلاء النقاد درسوها حق دراستها ؛ ولأنه - رحمه الله - ناقد موضوعي أمين يقدّر لذي قدر قدره،

فقد أعقب هذا النقد بما استفاده منهم فقال: " والإنصاف يقتضينا القول : إن بحثنا سيفيد من الجوانب الإيجابية وغيرها في تلك الدراسات المهمة التي تناولت فن النقد عند ابن الخطيب "[36].

وقد أجاد الدكتور جبران - رحمه الله - في الإنصاف حين أشار إلى جهد الدكتور إحسان عباس والتفاتته إلى الحس النقدي عند لسان الدين ابن الخطيب فقال : " ومهما يكن من شيء ، فقد أحس الدكتور إحسان بقيمة الرؤية الخطيبية ، وعاد من جديد في غير هذا الكتاب إلى مقاربة هذا الموضوع، حينما كتب مقالة جيدة تحت عنوان : (لسان الدين ابن الخطيب والنقد)"[37].

الخلاصـــــــــــة :

حـول آثار الدكتور جبران رحمه الله الأندلسية ، ودرسه الأندلسي فيها:

1ـ أن الدكتور جبران رحمه الله ترك إرثا أندلسيا غزيرا، فتح من خلاله آفاقا لمواضيع حرية بالبحث والدراسة.

2ـ تنوع الدرس الأدبي في آثار الدكتور جبران إلى أنواع عديدة، حيث شمل الجانب الإبداعي، والجانب الأكاديمي، سواء في فن الشعر، أو فن النثر بنوعيه (الأدبي والنقدي).

3ـ يتسم إرث الدكتور جبران رحمه الله بدقة العبارة، ورصانة الرؤية، فكان في نقده خاصة ذا آراء موضوعية.

4ـ اتسم الدكتور جبران بالأمانة العلمية، حيث لا تراه يدعي لنفسه رأيا سبقه إليه غيره، ولا يتجاهل ما استفاده من سابقيه.

5ـ تنوع الدرس الأندلسي في آثار الدكتور جبران رحمه الله إلى فنون عدة منها الدرس التعليمي الأكاديمي، والدرس التاريخي، والدرس الثقافي، وكلها تفتح آفاقا للبحث والدراسة.

الهوامـــــــــش :

(1) - من تقديم الدكتور زهير غازي لكتاب إيضاح المبهم من لامية العجم.

(2) - إيضاح المبهم من لامية العجم، لأبي جمعة الماغوسي، دراسة وتحقيق محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، ليبيا، الطبعة الأولى، 2009م، ص 14.

(3) - محمد مسعود جبران، جمعه واعتنى به د رضا جبران، دار الزاوي، طرابلس، الطبعة الأولى، 2021م، ص 239.

(4) - من تقديم الدكتور عبد الحميد الهرامة لكتاب مالك بن المرحل أديب العدوتين.

(5) - مالك بن المرَّحل – أديب العدوتين، ص 6 – 7.

(6) - ينظر: محمد مسعود جبران،237 – 246.

(7) - ينظر ترجمته في: الحركة الشعريَّة في ليبيا في العصر الحديث، ج 2، ص 659. دليل المؤلفين العرب الليبيين، ودليل مجمع اللغة العربية بليبيا، والشعر الليبي في القرن العشرين، ص 283، والمؤلفون الليبيون المعاصرون، ومعجم الأدباء والكتّاب الليبيين المعاصرين، ومعجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين.

(8) - ينظر: محمد مسعود جبران، ص 212.

(9) - مخطوط ديوان جهد المقل، محمد مسعود جبران، ص 3.

(10) - هو العالمُ الكبيُر ، والعلاَّمُة المغربيُّ الشهيُر أبو القاسم محمد الشريف السبتي) 697 – 760 (أستاذ العلاَّمةِ محمد لسان الدين بن الخطيب ، والعلاّمةِ عبدالرحمن بن خلدون ، وشيخُ شيوخ مشاهير المغرب ، والبلاد الأندلسيَّة في القرن الثامن الهجريّ ، وصاحبُ الشرح المشهور "رَفعُ الحجبِ المستورةِ عن مَحاسنِ المقصورةِ " في أَربعة أَجزاءَ. ينظر: رفع الحجب المستورة، ج 1، ص 57.

(11) - مخطوط ديوان جهد المقل، محمد مسعود جبران، ص 4.

(12) - من صيغ مدح أم كلثوم ودعابتها أن يقال لها: (يا ثومة).

(13) - مخطوط ديوان جهد المقل، محمد مسعود جبران، ص 65.

(14) – المصدر نفسه، ص 23.

(15) - مالك بن المرحل أديب العدوتين، ص 302.

(16) - مخطوط ديوان جهد المقل، محمد مسعود جبران، ص 93.

(17) - المصدر نفسه، ص 99.

(18) - ينظر: مالك بن المرحل أديب العدوتين، 128 – 282.

(19) – مخطوط ديوان جهد المقل، محمد مسعود جبران، ص 5.

(20) - المصدر نفسه، ص 5.

(21) - مالك بن المرحل أديب العدوتين، ص137

(22) – المصدر نفسه، ص137.

(23) - المصدر نفسه، ص199 .

(24) - المصدر نفسه، ص 200.

(25) - فنون النثر الأدبي، صفحة الغلاف.

(26) - المصدر نفسه، صفحة الغلاف.

(27) - المصدر نفسه، مج 1، ص 366.

(28) - المصدر نفسه، ص 15.

(29) - ينظر: دراسات في الأدب الأندلسي (مبنى الرسالة في نثر ابن زيدون وشعره) ص161.

(30) - ينظر: ملامح التجديد في النثر الأندلسي في القرن الخامس، ص 183.

(31) - فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، مج 1، ص 239.

(32) - المصدر نفسه، ص 15.

(33) - فنون المصدر نفسه، مج 1، ص 368.

(34) - المصدر نفسه، مج 1، ص 368.

(35) - المصدر نفسه، مج 1، ص 369.

(36) - المصدر نفسه، مج 1، 372.

(37) - المصدر نفسه، مج 1، ص 369.